مفهوم المعجزة عند ابن رشد

The concept of miracle when Ibn Rushd

مراح التركي [1] *، بليلي شفيعة [2]

[1] المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة (الجزائر)، merah.torki@ensb.dz
[2] المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة (الجزائر)، b-chafiaa@hotmail.fr

Merah Torki [1*], Chafiaa Belili [2]

[1] High school for Teacher Bouzareah, Algiers (Algeria)
[2] High school for Teacher Bouzareah, Algiers (Algeria)

تاريخ الاستلام:2023/04/08 تاريخ القبول:2023/07/06 تاريخ النشر:2023/07/30

ملخص:

عَرفت الفلسفة الإسلامية العديد من المواضيع التي كانت ولاتزال محل دراسة، خاصة المواضيع التي لها علاقة بالجانب الديني. حيث اختلفت وجهات النظر وتعددت الآراء حول الموضوع الواحد. ومن بين أهم المواضيع التي كانت محل خلاف بين الفلاسفة وبين الفرق الكلامية نجد ظاهرة المعجزة. حيث سلطنا الضوء على هذه الظاهرة من وجهة نظر فيلسوف كبير هو ابن رشد، وذلك من خلال التركيز على أنواع المعجزة عنده، وعلى علاقتها بمبدأ السببية. في الأخير توصلنا إلى عدة نتائج من بينها: أن المعجزة تعتبر دليل ثانوي في الاستدلال على صدق النبوة، كما أنها لا تقع في اطار الممكن، بل تخضع لمبدأ السببية والضرورة.

الكلمات المفتاحية: ابن رشد، المعجزة، النبوة، الرسالة، السببية.

Abstract:

Islamic philosophy knew many topics that were and still are being studied, especially those related to the religious aspect. There were different points of view, and there were many opinions on the same topic. Among the most important topics that were the subject of disagreement between philosophers and theological teams, we find the phenomenon of the miracle. Where we shed light on this phenomenon from the point of view of a great philosopher, Ibn Rushd, by focusing on the types of miracles according to him, and their relationship to the principle of causation. In the end, we reached several results, including: The miracle is considered secondary evidence in

* المؤلف المرسل.

inferring the truth of the prophecy, and it does not fall within the framework of the possible, but is subject to the principle of causation and necessity.

Keywords: Ibn Rushd, miracle, prophecy, message, causation

مقدمة:

يعتبر ابن رشد أحد أقطاب الفكر الفلسفي الإسلامي نظرا لعدة ميزات؛ جعلت فكر هذا الفيلسوف يختلف عن غيره من الفلاسفة المسلمين مثل اعتماده على المنهج النقدي أثناء دراسته لمختلف المسائل الدينية والفلسفية، مع الاحتفاظ بالعقلية الإسلامية رغم تأثره بأرسطو. والدَّارس للفكر الرُّشدي يستطيع أن يعرف ذلك من خلال توجيهه لعدة انتقادات سواء للفلاسفة كالغزالي، أو للفرق الكلامية كالأشاعرة من خلال أسلوبه النقدي الذي يتميز بعمق التحليل. فلقد اطلع ابن رشد على مختلف جوانب التراث الفلسفي اليوناني بالأخص منه الفكر الأرسطي. ولكنه في الوقت نفسه لم يبق منغلقًا ولم يبق حبيسًا للتراث اليوناني، بل راح يغوص في مختلف المسائل التي كانت محل اهتمام بيئته التي كان يعيش فيها ومحل اهتمام عصره، ونحن نعلم جيدا التطور الفكري الكبير الذي كان على مستوى البيئة الإسلامية في ذلك الوقت، ومن بين أهم المسائل التي تناولها الفكر الفلسفي الإسلامي وكانت محل جدل كبير نجد ظاهرة المعجزة، مما جعل مختلف الفلاسفة ومختلف الفرق الكلامية يختلفون حول هذه الظاهرة كموضوع للدراسة الدينية والفلسفية، وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل حول موقف ابن رشد من ظاهرة المعجزة. وما علاقة المعجزة بظاهرة النبوّة؟ وهل المعجزة كظاهرة تخضع لقانون السببية والضرورة أم أنها تقع في إطار الممكن؟

وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة ومعرفة موقف ابن رشد من ظاهرة المعجزة، لابد من أن نتطرق إلى ضبط تعريف المعجزة بشكل عام، وتعريفها عند فيلسوف قرطبة بشكل خاص.

1. تعريف المعجزة

1.1. التعريف اللغوي:

هي اسم فاعل مشتق من الإعجاز، وعند القول أعجز الشيء فلانا، أي فاته ولم يدركه، فالمعجزة إذن ما يعجز البشر أن يأتوا بمثله. (جميل صليبا، 1982، صفحة 391)

1.2. التعريف الاصطلاحي:

إن جميل صليبا يميز بين معنيان للمعجزة في اصطلاح الفلاسفة، أما المعنى الأول فهو الظاهرة المخالفة للنِّظام الطبيعي المألوف والمتعود عليه، إلاَّ أنَّ هذه الظاهرة لا تسمى عند بعضهم معجزة إلاَّ إذا كانت فعل فاعل مختار، أراد من خلاله إظهار أمر خارق للعادة يعجز الإنسان عن الإتيان بمثله، وهذا تقريبا ما نجده عند علماء الدين، حيث يرون أن المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتَّحدي، ودعوى النُّبوَّة، مع تعذر المعارضة، يُظهره الله على يد رسله تأييدا لنبوتهم و إثباتا لصدق رسالته ، أما المعنى الثاني للمعجزة فهي الظاهرة العجيبة أو الخارقة

للعادة، لا نستطيع تفسيرها مثل قولنا نجا فلان من الموت بمعجزة، ومثل قولنا كذلك فلان الشاعر أو المصور يجيءُ بالمعجزات. (جميل صليبا، 1982، الصفحات 391-392)

ونفهم من هذا التعريف أن المعجزة أمر خارق للسنة التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون، ولا تخضع للأسباب والمسببات ولا يمكن لأحد أن يصل اليها عن طريق الجهد الشخصي والكسب الذاتي، وإنما هو هبة من الله سبحانه وتعالى يختار نوعها وزمانها ليبرهن على صدق الرسل والأنبياء. (علي محمد محمد الصلابي، 2012، صفحة 09)

1.3 . تعريف المعجزة عند ابن رشد:

يرى ابن رشد أن المعجزة هي الآية الواضحة بذاتها، الدَّالة على القدرة والإرادة والحكمة الإلهية، وليست هي الخارقة التي تخرق قوانين العادة والطبيعة الحتمية، ومثلها القرآن الكريم بوصفه الآية المعجزة الصادقة والمقنعة بذاتها والتي وجب على العقل ادراكها و التصديق بها. فالمعجزة عند ابن رشد إذن هي الآية المقنعة الدَّالة على قدرة الله وعلى صدق الرسول ورسالته. (عبد الحميد درويش، 2000، صفحة 29) يقول ابن رشد: "وإذا كان الأمر هكذا فخارقة صلى الله علي وسلم الذي تحدى به الناس وجعله دليلا عن صدقه فيما ادعى من رسالته هو الكتاب العزيز. (ابن رشد، 1998أ، صفحة 29) ولقد استدل فيلسوف قرطبة على ذلك بمجموعة من الآيات القرآنية من بينها قوله تعالى: "قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا" (سورة الإسراء، الآية88) وقوله تعالى ايضا:" فأتوا بعشر سور مثله مفتريات." (سورة هود، الآية 13)

2. شروط المعجزة عند ابن رشد

2.1. الصحّة والتصديق:

أي أنْ تكون المعجِزة شاهدة على صحة النبوة وأنْ يكون التصديق بالنبوة قبل المعجِزة لا بعدَها، فالإيمان بالله وبالرسل واجِب قبل الإيمان والتصديق بالمعجِزات بوصفِها خوارِق. كما أنّ المعجِزات ليست كلّها خوارِق؛ وليست كُلّها حسية مُشاهَدَة، ودليله على ذلك أنّ الدين الإسلامي لم تكُن من حجيّتِه المعجِزَات، بل كانت معجِزاتهُ آيات الكتاب المحكمة من خلال ما فيها من تنظيم وترتيب وأسلوب وبلاغة ومعرفة، ولو صدّقَ الناس بالمعجِزات الحسية وحدَها لما جاء القرآن الكريم بهذه الصّفة من الحكمة والاقناع (عبد الحميد درويش، 2000، الصفحات 29-30)، وفي هذا يقول ابن رشد: "وأمّا المقدمة القائلة إنّ كلُّ من ظهرت على يديه المعجزة رسول، فإنّما تصحُّ بعد الاعتراف بوجود الرسل." (ابن رشد، 1998أ، صفحة 175)

2.2. الاتصال:

أي أنْ تكون المعجِزة متصلة بالنبوة والرسالة، فالنبوة عند إبن رشد ضرب من الاتصال بين النبي والله، وهذا والاتصال هو الذي يجعل من الممكن حدوث المعجزة وتصديقِها. (عبد الحميد درويش، 2000، صفحة 41)

2.3. الاتقان:

إنّ الاتقان الذي يقصده ابن رشد هو الانتظام والترتيب الموجود في الكون، وهذا الاتقان يؤكّد حكمة الله من المعجزة، حيث يقول ابن رشد: "وإنّه واجِب هاهنا ترتيب ونظام، لا يمكن أن يوجد أتقن منه ولا أتمَّ منه وأنّ الامتزاجات محدودة مقدَّرة والموجودات حادِثة عنها واجِبَة." (ابن رشد، 1998أ، صفحة 168) أي أنّ القول بالإتقان يؤكد الضرورة والحتمية ويتنافى مع فكرة الجواز والامكان.

2.4. التوافق:

أي ضرورة أن تكون المعجِزة متوافقة مع ما جاء به الشرع ومع ما يقرّه العقل ومع الاعتقاد الجازِم بأنّ إرادة الخالق لا يُعجِزها أمر من الأمور، وهذا يعني أنّ المعجزة لا بدّ أن تكون متوافقة مع قوانين العقل وقوانين المنطق وليس خرقاً لها، ومن الضروري أيضاً أن تكون المعجِزة متوافقة مع ما جاء به الشرع ومع ما يدعو إليه الرسول صاحب المعجِزة ومؤيدة له في نفس الوقت، ومن هنا كان شرط التوافق موضحاً لحقيقة المعجِزة وحكم الاعتقاد بها ومدى الارتباط بين التصديق بالمعجزات والإيمان بالرسل والرسالات وتصديقها، وتفسير ذلك عند ابن رشد أنّ الشرع أوجب النظر العقلي المؤيد إلى المعرفة بالله والكون وكلّ ما فيه من مخلوقات، فالنظر العقلي لا يؤدي إلى ما يخالف الشرع. وأنّ المعجزات كانت واجِبة وليست ممكنة فهي لا تحتاج إلى أدلّة وبراهين، أمّا إذا كانت ممكنة أو جائزة فهي تعرف معرفة تقريبية ومن ثمّ فهي بحاجة إلى أدلة وبراهين. (عبد الحميد درويش، 2000، صفحة 45)

3. أنواع المعجزة عند ابن رشد

لقد ميّز ابن رشد بين نوعان من المعجزة في كتابه "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة". وذلك أثناء نقده لموقف فرقة الأشاعرة حول موضوع المعجزة حيث يقول: "أنّ دلالة القرآن على نبوّتِه صلّى الله عليه وسلّم ليست هي مثل دلالة انقلاب العصا حيّة على نبوة موسى عليه السلام، ولا إحياء الموتى على نبوّة عيسى، وإبراء الأكمه والأبرص، فإنّ تلك وإنْ كانت أفعالاً لا تظهر إلاّ على أيدي الأنبياء، وهي مقنِعة عند الجمهور فليست تدلّ دلالة قطعية إذا اِنفرَدَت، إذ كانت ليست فعلاً من أفعال الصفة التي بها سُمِّيَ النبي نبيّاً. وأمّا القرآن فدلالته على هذه الصفة هي مثل دلالة الإبراء على الطب." (ابن رشد، 1998أ، الصفحات 184-185) وهو بذلك يقصد المعجز العقلي الجواني والمعجز الحسي البراني.

3.1. المعجز العقلي الجواني:

إنّ المعجزة الحقيقية في نظر ابن رشد هي المعجزة العقلية، والتي يجب أن تكون الشريعة نفسِها، وليس ما يظهر من خوارِق، ومعجِزة الرسول –صلّى الله عليه وسلّم– هي خير مثال على ذلك والتي تتمثل في القرآن الكريم، ولأنّ النظر العقلي أمر واجب بالشرع، وبراهين العقل يجب أن تتوافق مع روح الشرع، وتستمد في أكثرها من آيات القرآن الكريم بعد تأويلها التأويل العقلي السليم، من أجل ذلك كان المعجز العقلي أهمّ من المعجز الحسي. (عبد الحميد درويش، 2000، صفحة 49)

والذي يُفهم من ابن رشد حول المعجز العقلي هو الدليل الوحيد الذي يثبت النبوة والرسالة وذلك يكون من خلال الشرائع والأحكام الموجودة في هذه الرسائل، وفي هذا يقول ابن رشد: "والتصديق من قبل المعجز المناسب طريق مشترك للجمهور والعلماء، فإنّ تلك الشكوك والاعتراضات التي واجهناها على المعجز البراني ليس يشعر بها الجمهور، لكن الشرع إذا تؤمل وجد أنّه إنّما اِعتمد المعجز الأهلي والمناسب لا المعجز البراني." (ابن رشد، 1998أ، صفحة 185)

إنّ هذا النوع من المعجِزات في نظر ابن رشد يدلُّ دلالة قطعيّة يقينيّة على وجود الرسول وشريعتِه، وقد اِستمدّت صفة القطع واليقين من كونِها مناسبة للصفة التي من أجلِها وصف إنسان ما بأنّه رسولٌ أو نبيّ، فلا بدَّ أن تدلّ الصفة تماماً على الموصوف، فلفظ الرسول يجب أن يكون مطابِقاً للصفات الواجِب توافُرُها في الرسول. (عاطف العراقي، 1984، صفحة 358)

والدليل على أنّ القرآن معجز ودالّ على وُجود النبوة دلالة قطعية في نظر ابن رشد أنّه يحتوي على شرائع من العلم والعمل لا يمكن أن تُكتسَبَ بتعلُّمٍ بل بالوحي، وأنّه يتضمَّن الإعلام بالغيوب وأنّه كذلك من غير جنس البلغاء المتكلمين بلسان العرب. فنظم القرآن الكريم لا يرقى إليه أي نُظُم كان بفكر ورويه من العرب أو من غير العرب. (ابن رشد، 1998أ، صفحة 181)

3.2. المعجز الحسي البراني:

إنّ المعجز البراني لا يدلّ دلالة قاطِعة على النبوة، وهذا النوع يُعتبر طريق الجمهور إلى التصديق بوجود الأنبياء، أي أنّ الفرق بين المعجز الحسي البراني والمعجز العقلي الجواني هو فرق في درجة التصديق لا غير بين الجمهور والعلماء. فإذا كان الأول يخص الجمهور فقط، فإنّ الثاني يخص الجمهور والعلماء معاً. (فتيحة فاطمي، 2016، صفحة 305)

إنّ هذا النوع من أنواع المعجزات وهو المعجز الحسي أو المعجز البراني أقل أهمية من المعجز الأول في نظر ابن رشد، ذلك أنه لا يعد يقينياً، ولأنه لا يدل على أنّ الصفة التي من أجلها وُصِف النّبي أو الرّسول بأنه كذلك، ففي هذا المعجز الصفة لا تدلُّ عل الموصوف.

فالمعجز الحسي عموماً هو جملة الأفعال التي أجراها الله على يد من اِصطفى من أنبيائه لتكون دليلاً على نبوَّتِهم، وإنقاذاً لهم من أعدائهم، وهي أمور تفوق قدرة البشر وتخرج عن المعهود والمألوف، وعندما تتمُّ مشاهدة هذه الأفعال من طرف الجمهور يتعجبون ولا يملكون سوى التصديق بها والإيمان بحكمة الإله وقدرته، مثل انقاذ إبراهيم من الإحراق، وفلق البحر وقلب عصا سيدنا موسى حيّة وغيرها من الأفعال الأخرى، لذلك فالمعجِز الحسي بهذا الوصف عند ابن رشد هو مجرّد علامة خارجية أو حدث مرئي قد يؤكّد وجود الرسالة أو أنّ صاحب المعجزة هو النبي المرسل إليهم. غير أنّه ليس دليلاً كافياً على أنّ رسالته صحيحة أو وُجُوب التصديق بها، فالجمهور أو عامّة الناس يرونَ أنّ المعجِز الحسي دليلاً على النبوّة وصدق الرسالة، إلاّ أنّ الدليل الوحيد الذي يثبت صدق رسالة من الرسالات هو الشرائع والأحكام التي تتضمَّنُها تلك الرسالات والحقائق التي تكشفها للناس وما يكون فيها من صلاح وخير لهم. (عبد الحميد درويش، 2000، صفحة 49)

4. النُّبوَّة أولا ثم المعجزة ثانيا

معروف عن المتكلمين بصفة عامة والأشاعرة بصفة خاصة أنهم استدلوا على وجود النُّبوَّة من خلال المعجزة على اعتبار أن المعجزة عندهم هي خرق للعادة وتجاوز للعلاقة السببية الضرورية الرابطة بين الأسباب والمسببات، حيث ناقشهم ابن رشد في ذلك مؤكدا أنه قبل الحديث عن المعجزة والاستدلال عليها والتدقيق في تفاصيلها يجب أولا أن نتطرق إلى النُّبوُّة كظاهرة؛ حيث يقول ابن رشد: "إن كل من ظهرت على يده المعجزة رسول، فإنها تصح بعد الاعتراف بوجود الرسل، وبعد الاعتراف أنها لم تظهر قط إلاّ على من صحت رسالته، وإنما قلنا أن هذه المقدمة لا تصح إلاَّ ممن يعترف بوجود الرسالة ووجود المعجزة لأن هذه طبيعة القول الخبري، أعني أن الذي تبرهن عنده، مثلا أن العالم مُحْدَث، فلا بد أن يكون عنده معلوما بنفسه أن العالم موجود، وأن المحدِث موجود." (ابن رشد، 1998أ، صفحة 175)

فالإيمان بالله والرسل واجب قبل الإيمان والتصديق بالمعجزات بوصفها خوارق، كما أن المعجزات ليست كلها خوارق وليست كلها حسية مشاهدة، ودليله على ذلك أن الدين الإسلامي لم تكن من حجيته المعجزات، بل كانت معجزاته آيات الكتاب المحكمة _ كما سبق الذكر _ من خلال ما فيها من تنظيم وترتيب وأسلوب وبلاغة ومعرفة. ولو صدَّق الناس بالمعجزات الحسية وحدها لما جاء القرآن بهذه الصفة من الحكمة والإقناع. (عبد الحميد درويش، 2000، الصفحات 29-30) حيث يقول ابن رشد في هذا: "وذلك أنه ليس يصح تصديقنا للذي ادَّعى الرِّسالة عن الملك، إلاَّ متى علمنا أن تلك العلامة التي ظهرت عليه هي علامة الرُّسل للملك. وذلك إما بقول الملك لأهل طاعته: إن من رأيتم عليه علامة كذا من علاماتي المختصة بي فهو رسول من عندي، أو بأن يعرف من عادة الملك أن لا تظهر تلك العلامة إلاَّ على رسله. وإذا كان هذا هكذا، فلقائل أن يقول: من أين يظهر أن ظهور المعجزات على أيدي بعض الناس هي العلامات الخاصة بالرسل؟ فإنه لا يخلو أن يدرك هذا بالشرع أو بالعقل، ومحال أن يدرك هذا بالشرع، لأن الشرع لم يثبت بعد والعقل أيضا ليس يمكنه أن يحكم أن هذه العلامة خاصة بالرسل، الاَّ أن يكون قد أدرك وجودها مرات كثيرة للقوم الذين يعترف برسالتهم ، ولم تظهر على أيدي سواهم." (ابن رشد، 1998أ، صفحة 174)

وبالتالي فالطريق الصحيح في مسألة النُّبوَّة و المعجزة يتمثل في إثبات بعثة الرُّسل أي وجود الأنبياء أولاً، و هذا الأمر لا تحتاج فيه إلى استدلالات نظرية لأن وجود الأنبياء عبارة عن ظاهرة تاريخية، حيث تواتر الخبر عن وجود الأنبياء في الماضي، من جيل إلى جيل آخر، مثل تواتر الخبر عن وجود فلاسفة وعلماء وفاتحين... الخ، واذا كنَّا لا نشك في وجود الحكماء مثل سقراط وأفلاطون على سبيل المثال فلماذا نشك في وجود الأنبياء؟ (محمد عابد الجابري، 1988، صفحة 133) حيث يقول ابن رشد: "وذلك أنه ليس يُنكر وجودهم إلاَّ من يُنكر وجود الأمور المتواترة كوجود سائر الأنواع التي لم نشهدها والأشخاص المشهورين بالحكمة وغيرها، وذلك أنه قد اتفقت الفلاسفة وجميع الناس إلاَّ من لا يعبأ بقوله وهم الدهرية، على أن ها هنا أشخاص من الناس يوحى إليهم بأن ينهوا إلى النّاس أمورا من العلم والأفعال الحميلة بها تتم سعادتهم، وينهوهم عن اعتقادات فاسدة وأفعال قبيحة. وهذا هو فعل الأنبياء." (ابن رشد، 1998أ، صفحة 179)

ويرى ابن رشد كذلك وهذا عكس ما ذهب إليه الأشاعرة، أن وضع المعجزة في اطار الواجب العقلي أفضل من وضعها في اطار الممكن؛ بمعنى إمكان خرق العادة وقوانين الطبيعة، وإذا كانت المعجزة ممكنة من حيث حدوثها وادراكها فإنّ مرد هذا الإمكان هو أن قدرة الله على عمل يعجز عنه الناس أمر لا ينكره مؤمن بالله، ولا ينكره العقل كذلك، وعلى ذلك فالمعجزة أمر يجيزه الشرع ويقره العقل، وإرادة الخالق لا يعجزها أمر من الأمور. (عبد الحميد درويش، 2000، صفحة 29) هذا من ناحية ومن ناحية اخرى يرى ابن رشد أن الشريعة هي الأصل الأول الدَّال على حقيقة المعجزة، لذلك يجب أن تتميز عن باقي الأمور الخارقة للعادة كالسحر والكرامات أو معجزات الحس التي جاءت على أيدي الأنبياء والرسل كقلب العصا حية أو انفلاق البحر؛ (عبد الحميد درويش، 2000، الصفحات 29-30) حيث يقول ابن رشد: "فإذا اعترفنا بوجود الرسالة على أن ننزل الإمكان الذي هو الجهل منزلة الوجود، وجعلنا المعجزة دالَّة على صدق الشخص المدَّعي الرِّسالة، وجب ضرورة أن لا تكون دلالتها لازمة لمن يُجَوِّز أن المعْجِز قد يظهر على يد غير رسول، على ما يفعله المتكلمون، لأنهم يُجَوِّزون ظهورها على يدي الساحر، وعلى يدي الولي... وأنت تتبين من حال الشارع صلى الله عليه وسلم أنه لم يدع أحدا من النَّاس ولا أُمَّة من الأمم إلى الإيمان برسالته وبما جاء به بأن قدم على يدي دعواه خارقا من خوارق الأفعال، مثل قلب عين من الأعيان إلى عين أخرى، وما ظهر على يديه صلى الله عليه وسلم من الكرامات والخوارق، فإنما ظهرت في أثناء أحواله من غير أن يتحدى بها. (ابن رشد، 1998أ، الصفحات 177-178)

فهو يريد أن يبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما بُعث إلى النَّاس كافة لم يتحداهم باستعمال معجزات حسية خرق بها العادة والقوانين الطبيعية بل إن ظهور هذه الكرامات والخوارق كان من غير تحد. وهذا ما وضَّحه "عباس محمود العقاد" الذي يرى أن المعجزة في نظر ابن رشد مقنعة على اعتبار أن المشَاهِد لها يرى أنها عمل لا يقدر عليه غير الله، فلا بد له إذا من الإيمان بالله قبل الإيمان بالإعجاز، فالإسلام لم تكن من حجته المعجزات بل كانت مُعجزَته آيات القرآن الكريم. (عباس محمود العقاد، 1971، صفحة 67) لذلك يؤكد ابن رشد على ضرورة أن ترتبط المعجزات بالنُّبوَّة والرِّسالة وصدقها وسلامة جوهرها، ولذا فالمعجزات كخوارق للعادة، لا تقع في دائرة الإمكان بل تقع في المرتبة الثانية في الدلالة على صدق النبوة. لأن الدلالة الأولى بالطبع هي الرسالة أو الشريعة التي يأتي بها الرسول وليس المعجزة الحسية المشاهدة، بدليل أن النَّبي لم تكن من حجيته الخوارق بل دعوته وقرآنه. (عبد الحميد درويش، 2000، صفحة 30) فالمعجزة في رأي ابن رشد علامة خارجية قد تؤكد وجود الرسالة، أي تؤكد أن صاحب المعجزة نبي مرسل غير أنها ليست دليلا على صحة رسالته، وعامة الناس أو الجمهور كما يقول يرى في المعجزة دليلا، إلاَّ أن الدليل الوحيد الذي يثبت صدق رسالة من الرسالات هو الشرائع نفسها التي تتضمنها تلك الرسالات، والحقائق التي تكشفها للناس، وما تضمه من صلاح وخير لهم. (مصطفى غالب، دون تاريخ، الصفحات 75-76)

5. دليل النبوة عند ابن رشد

من خلال الشرائع نعرف النَّبي من الساحر ومن الكاذب، لأن الشرائع التي تستهدف الخير والفضيلة لا تصدر الاّ من الأنبياء وليس بوسع كل إنسان وضع شرائع كشرائع الأنبياء، وإذن فكل من قال عن نفسه أنه نبي رسول من الله، وجاء بشريعة من جنس شرائع الأنبياء تتفوق في العادة على ما يمكن أن يأتيه مطلق الناس في عصره مما يشبهها فهو نبي وبما أن الناس ليسوا جميعا من الذكاء و العقل و الفضل، بحيث يمكن أن تتصورهم يلتزمون الفضيلة من عند أنفسهم، فإن الأنبياء والرسل هم من هذه الناحية ضرورة اجتماعية. (محمد عابد الجابري، 1988، صفحة 133) وهذا ما يوضحه ابن رشد من خلال قوله: "فمن أين يصح لنا أن من ظهر على يده العجز فهو رسول؟ وذلك أن هذا الحكم ليس يمكن أن يأخذ من السمع، إذْ السمع لا يثبت من قبل هذ الأصل، فيكون من باب تصحيح الشيء بنفسه وذلك فاسد ولا سبيل إلى أن يدّعى صحة هذه المقدمة والعادة، إلاَّ إذا شوهدت المعجزات الظاهرة على أيدي الرُسل، أعني من يعترف بوجود رسالاتهم، ولم تشاهد على أيدي غيرهم، فتكون حينئذ علامة قاطعة على تمييز من هو رسول من عند الله ممن ليس برسول، أعني بين من دعواه صادقة وبين من دعواه كاذبة." (ابن رشد، 1998أ، صفحة 176)

لكن ما الدليل على أن هذه الرسالة رسالة إلهية ومبلِّغها هو نبي؟ يُجيب ابن رشد قائلا: "لما كان لا يظهر من الممتنع أنها لا تظهر إلاَّ على يدي الفاضلين الذين يُعنى الله بهم، وهؤلاء إذا كذبوا ليسوا بفاضلين فليس يظهر على أيديهم العجز. لكن ما في هذا المعنى من الإقناع لا يوجد فيمن يُجَوِّزُ ظهورها على يدي الساحر فإن الساحر ليس بفاضل." (ابن رشد، 1998أ، الصفحات 177-178) فالفضيلة أهم معيار للتمييز بين النبي الصادق وأي مدّعي ساحر، وهي الدليل الأول. أما الدليل الثاني فهو أن النبي يعلم حدوث الأشياء قبل حدوثها، وأنه يحدد للناس الأفعال والمعتقدات الواجب التمسك بها، ويرشدهم إلى العلوم والمعارف التي فيها خيرهم وصلاحهم، مما يدل على أن هذا الفعل الصادر عنه لا يكون بالاكتساب وإنما يوحى من الله تعالى وهذا هو المعجز الدَّال دلالة قطعية على وجود النبوة، (فتيحة فاطمي، 2016، صفحة 301) ويعطينا ابن رشد مثالا يوضح ذلك حيث يفترض وجود رجلين كل منهما يدَّعي الطب، أحدهما يبرهن على ذلك من خلال أنه يبرئ المرضى، والثاني يبرهن على ذلك بقدرته على السير على الماء. وتصديقنا بوجود الطب للذي أبرأ المرضى برهان، وتصديقنا بوجود الطب للذي مشى على الماء مقنعا. (ابن رشد، 1998أ، صفحة 185)

6. علاقة المعجزة بالسببية عند ابن رشد

لم ينكر الفلاسفة ومن بينهم ابن رشد في حقيقة المعجزات ولم يشككوا في وقوعها مصاحبة لدعوات الأنبياء، غير أن ابن رشد تنبَّه إلى ما يؤدي إليه نقد الغزالي – والمتكلمين – من خطر بالنسبة لنسق الميتافيزيقيا والفيزيقا الأرسطي والذي عرض له ابن سينا وهاجمه الغزالي. وكأن ابن رشد بذلك كله يريد تحقيق ضمان لإمكانية المعرفة العلمية البرهانية من منطلق عملي ونظري معا. (مصطفى لبيب عبد الغني، دون تاريخ، الصفحات 75-76)

ولقد اختلفت قراءات الباحثين حول موقف ابن رشد إزاء هذه القضية فنجد مثلا "دي بور" يرى أنّ لابن رشد ثلاثة آراء إلحادية كبيرة مخالفة لمختلف الديانات الكبرى في عصره، من بينها قوله بارتباط حوادث الكون جميعا ارتباط علة بمعلول على وجه ضروري لا يترك مجالا للعناية الإلهية أو الخوارق. (دي بور، 1954، الصفحات 322-323) وهذا الحكم يحتاج إلى مراجعة وتدقيق أكثر على اعتبار أن ابن رشد لا يرى في المعجزات قضاء على العلية. وهي تفترض مقدما يسبقها ونعني به الألوهية، فهو يرى في العلل الثانوية أو الوسائط كفاية في إحداث معلولها وبما يتفق أيضا مع صدق مبدأ العلية. وهناك فريق آخر من الباحثين يرى أن موقف ابن رشد يكمن في أنه كان يتشكك في قيمة وفاعلية الاستدلال بالمعجزة والاحتجاج بها على صدق النبوة. وغاية ما يراه هو أن في المعجزة إغراء لمن تعجزه وسائل البرهنة العقلية، واستهدافا لإذاعة الحقائق الدينية على نحو أكثر اتساعا ودون أن يكون في هذا الموقف بالضرورة مدعاة للشك في الرسالة أو المرسل أو المعجزة، وفي مَذْهب ابن رشد تأكيد واضح لأهمية ولدور مبدأ السببية وقيمته، فهو في نظره ضروري لا يمكن التقليل من قيمته والتهوين من شأنه لقيام أي معرفة علمية سليمة بحقيقة الوجود، بل إن ابن رشد يُسوّي بين العقل وبين العلية. (مصطفى لبيب عبد الغني، دون تاريخ، الصفحات 76-77) وفي هذا يقول: "فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل وصناعة المنطق تضع وضعا أن ها هنا أسبابا ومسببات، وأن المعرفة بتلك المسببات لا تكون على التمام إلاَّ بمعرفة أسبابها، فرفع هذه الأشياء هو مبطل للعلم ورافع له." (ابن رشد، 1998ب، صفحة 507)

ولا شك أن معالجة ابن رشد لمسألة السببية والمعجزة والخوارق قد أظهرت مدى تأثره بآراء أرسطو في العلل الأربعة. فهو رفض أن تقع المعجزات في إطار الممكن، على اعتبار أن الممكن يمكن أن يوجد كما لا يمكن أن يوجد، وهو المحتمل وقوعه؛ أي الذي يحدث صدفة، والصدفة تعني أن القوانين الطبيعية ليست حتمية بمعنى الكلمة، وأن خروج الجائز إلى حيز الوجود يقتضي تغيرا في الإرادة القديمة ومن ثم لابد من القول بحدوث الإرادة مع حدوث المراد. فهو يرى أن القول بإمكان وخرق العادات هو تعطيل للأسباب وخرق للنِّظام وإنكار لحكمة الخالق، لذلك لابد من وضع المعجزة في دائرة الواجب العقلي، والعقل لا ينكر المعجزات، والمعجزات لابد أن تساير الأسباب والعقل. (عبد الحميد درويش، 2000، صفحة 70) فابن رشد يرى أن إدخال المعجزات ضمن القول بالإمكان معناه نفي الحكمة الإلهية من جهة، ونفي نظام الكون الذي لا يحتمل السببية من جهة أخرى.

ومن هنا يظهر لنا أن الأساس الذي اعتمد عليه ابن رشد في القول بمبدأ السببية هو فكرة الحكمة والغائية، وهذا ما يظهر من ترتيب الأشياء وفق القوانين الطبيعية الثابتة.

الخاتمة:

من خلال ما تقدم يتبين لنا أن ظاهرة المعجزة كموضوع للدراسة ظاهرة جد معقدة وجد متشابكة، لصلتها بمواضيع أخرى مهمة ومتعددة، كالنبوة والسببية. مما جعل أفكار الفلاسفة، والفرق الكلامية متضاربة ومختلفة مع بعضها البعض حول المعجزة. وهذا ما لمسناه من خلال بحثنا هذا خاصة من خلال موقف ابن رشد النقدي لفرقة الأشاعرة وفرقة المعتزلة حول موضوع المعجزة في كتابه "الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة" حيث توصلنا إلى نتائج مهمة وهي كالآتي:

1. أن الحديث عن ظاهرة المعجزة يجب أن تسبقه الحديث عن النبوة أولا، لأن الإيمان بالله والرسل واجب قبل الإيمان والتصديق بالمعجزات، وبالتالي يجب أولا إثبات بعثة الرسل، أي وجود الأنبياء قبل ظاهرة المعجزة.
2. أن المعجزة أمر ثانوي في الاستدلال على صدق النُّبوَّة، في حين أن الدليل الوحيد على اثبات النُّبوَّة هو الشرائع التي تتضمنها رسالة النبي.
3. أن ظاهرة المعجزة لا تقع في إطار الممكن، لأن الممكن يمكن أن يحدث و يمكن أن لا يحدث.
4. أن إرادة الله قديمة، والقول بأن ظاهرة المعجزة ممكنة ينجر عنها تغيُّر في هذه الإرادة القديمة.
5. أن المعجزة تخضع لقوانين السببية والضرورة، وهنا تتجلى وتظهر الحكمة الإلهية من خلال ما يوجد من نظام وانسجام في الكون من جهة، والغائية التي تسير بمقتضاها أفعال الموجودات من جهة أخرى. فالمعجزات وخوارق العادات في نظر ابن رشد يجب أن تخضع للعقل والسببية ولا تخرج على نظام العلة و المعلول.

ومما سبق أقترح ضرورة إعطاء بعض المواضيع التي هي على علاقة بظاهرة المعجزة حقها من البحث والدراسة مثل علاقة المعجزة بالكرامة وبالسحر، ومفهوم المعجزة بين الفكر الفلسفي الاسلامي والفكر الفلسفي المسيحي، ذلك أن هذه المواضيع متشابكة بعضها مع بعض.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. ابن رشد. (1998أ). الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
3. ابن رشد. (1998ب). تهافت التهافت. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
4. جميل صليبا. (1982). المعجم الفلسفي، ج2. بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.
5. دي بور. (1954). تاريخ الفلسفة في الاسلام. (محمد عبد الهادي أبو ريدة، المترجمون) بيروت، لبنان: دار النهضة العربية.
6. عاطف العراقي. (1984). النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد. القاهرة، مصر: دار المعارف.
7. عباس محمود العقاد. (1971). ابن رشد. القاهرة، مصر: دار المعارف.

8. عبد الحميد درويش. (2000). المعجزات وخوارق العادات عند الغزالي وابن رشد. القاهرة، مصر: عالم الكتب.
9. علي محمد محمد الصلابي. (2012). المعجزة الخالدة. دار المعرفة.
10. فتيحة فاطمي. (2016). التأويل عند الفلاسفة المسلمين-ابن رشد نموذجا-. بيروت، لبنان: جداول.
11. محمد عابد الجابري. (1988). ابن رشد سيرة وفكر. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
12. مصطفى غالب. (دون تاريخ). ابن رشد. بيروت، لبنان: دار ومكتبة الهلال.
13. مصطفى لبيب عبد الغني. (دون تاريخ). مفهوم المعجزة بين الدين والفلسفة عند ابن رشد. القاهرة، مصر: دار الثقافة.